جماليات التلقي في الخطاب النبوي الشريف

إيمان بوقردون

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة

imenbouk319@gmail.com

الملخص باللغة العربية

تتغيأ هذه الدراسة الوقوف على النهج الجديد الذي انتهجه النبي ﷺ في تعامله مع المتلقي والذي أثر من جهة على ذائقته اللغوية وأثراها بألفاظ ومعان وتراكيب جديدة ، وهذب استعمالات كثيرة مما حفظ للغة تجددها وتطورها وحركيتها و حيويتها ، ومن جهة أخرى تجلت قصدية الخطاب النبوي الشريف ذلك أن هذا النهج البلاغي الجديد وُضع بشكل مقصود ومتعمد ؛ وهذا الابتكار في المعاني و الألفاظ والخروج عن المألوف وكسر أفق التوقع يرتبط ارتباطا وثيقا بمقاصد ظاهرة و أخرى باطنة ، هدفها تقويم السلوك الإنساني وحفظ النفس البشرية و إحاطتها بالقيم التي تضمن لها إنسانيتها ، إنه تحويل كامل لمفاهيم ثابتة لدى المخاطب وتأصيل لمعان جديدة؛ خاصة أن هذا الخطاب يطرح أمام المتلقي معطيات صحيحة لا مجال فيها للشك.

الملخص باللغة الإنجليزية

This study seeks to examine the new approach adopted by the Prophet, may God's prayers and peace be upon him, in his dealings with the recipient, which affected on the one hand his linguistic taste and enriched it with new words, meanings and structures, and refined many uses that preserved the language of its renewal, development, dynamism and vitality, and on the other hand, the intention of the prophetic discourse was manifested. Sharif, because this new rhetorical approach was intentionally and deliberately developed; This innovation in meanings and expressions, departing from the norm and breaking the horizon of expectation is closely related to apparent and other hidden purposes, whose goal is to evaluate human behavior, preserve the human soul and surround it with values that guarantee its humanity. It is a complete transformation of fixed concepts in the addressee and the rooting of new meanings; Especially since this letter presents to the recipient correct and unquestionable data.

مقدمة

لقد بعث الله عز وجل رسوله ﷺ في أمة تعتز بالفصاحة و تتبارى في البلاغة و تمجد البيان لذلك كانت معجزته من جنس ما شغل القوم وأخذ بألبابهم فانبهرت العرب ببلاغته وفصاحته ؛ و خرً أئمة البيان صاغرين مذعنين لإعجازه.

وقد حقق الخطاب النبوي أعلى مستويات التواصل ووضع المتلقي ضمن أولوياته حيث يظهر جماله في الأثر الذي يتركه في السامع ، وهو خطاب توفر حسب تعبير "الجاحظ" على معايير الجودة من قلة الحروف و جلال المعاني و المقاصد و البعد عن التكلف ؛ وبلاغته هذه في الأساس تهدف إلى إمتاع المتلقي و إقناعه كيف لا وقد أوتي النبي ﷺ من جوامع الكلم وبدائع الحكم ما لم يؤت أحد غيره من البشر، وقد تمكن هذا الخطاب النبوي من خرق لغة العرب بل إن النبي الكريم كان منتجا للألفاظ و المعاني مولدا لصيغ لم تعهدها العرب في كلامها بالرغم مما بلغته من علو كعب و عظيم شأو في البلاغة و الفصاحة ؛ و بالرغم من أن العرب آنذاك كانوا محيطين بكثير من عجيب المعاني وغريبها إلا أن طريقة نظم النبي لخطابه الشريف غاب عنهم في كثير من الأحيان ، بل كثيرا ما فاجأ هذا الخطاب متلقيه وخيب انتظارهم وكسر أفق توقعهم وهذه أهم المحطات الإجرائية التي تبناها " ياوس" والتي تقوم عليها نظرية التلقي في الفكر النقدي الحديث إضافة إلى المسافة الجمالية التي طرحها في كتاباته والتي تسمح لنا بالتمييز بين وضعيات استجابة المتلقي من انسجام مع أفق التوقع أو كسره و من ثم تغييره ، وقد جاءت هذه الورقة البحثية لتحاول الإجابة عن الأسئلة الآتية :

1- ما المقصود بنظرية التلقي و ما هي أهم محطاتها الإجرائية ؟
2- ما المكانة التي احتلها المتلقي في الخطاب النبوي ؟ وهل كان له تأثير على أساليبه وخصائصه؟
3- ما الأساليب التي اتبعها الخطاب النبوي في كسر أفق توقع المتلقي و إعادة بنائه ؟
4- هل للمتلقي الضمني حضور في الخطاب النبوي الشريف؟
5- كيف تلقى العلماء و الأدباء بلاغة الخطاب النبوي الشريف ؟

أولا- تحليل الخطاب في ضوء نظرية التلقي

1-نظرية التلقي /المفهوم و المصطلح

إن المتتبع لحركة النقد " يرصد ثلاث لحظات في صيرورة النقد الحديث ، لحظة المؤلف و تمثلت في نقد القرن التاسع عشر، ثم لحظة النص و يجسدها النقد البنائي في الستينات من القرن العشرين ،ثم لحظة القارئ أو المتلقي و تمثلها اتجاهات ما بعد البنيوية و خاصة نظرية التلقي في السبعينات" [1]ولعل إعلان رولاند بارث rolandbarthes عن موت المؤلف la mort de lauteur يعد لحظة مفصلية رفعت من شأن المتلقي و أوكلت إلية مهمة فهم النص و قراءته و تأويله .

ترتبط نظرية التلقي بالصيرورة التاريخية التي عرفها الفكر الألماني في المستوى الأدبي و النقدي ، و ليس معنى هذا أن التلقي مختص بألمانيا وحدها دون غيرها من الآداب الإنسانية الأخرى ، إلا أن القصد الفلسفي و النظري الذي اتخذته نظرية التلقي في ألمانيا و مانتج عن ذلك من فرضيات نظرية و ممارسات تطبيقية هو ما جعل من ألمانيا

[1] بشرى موسى صالح ، نظرية التلقي ، أصول وتطبيقات ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط1 ، 2001 ، ص 32

المرجع الأساس في تلك الفعالية النظرية بل و فرضت نفسها في تاريخ الفكر النظري الأدبي و النقدي المعاصر و في تاريخ المناهج النقدية المعاصرة كذلك 1.

أما النقد العربي ومنذ بداياته لم يغفل الحديث عن المتلقي و متعته الجمالية بالنص ،و قد تجلى ذلك في جملة الأحكام النقدية و الآراء الانطباعية و الآثار التطبيقية المتباينة تباين المراحل الزمنية و الرؤى الفكرية غير أنها لم تسفر عن نسق منهجي واضح المعالم .

فالمتلقي إذا كان ضمن دائرة الاهتمام و قد مارس عملية التلقي و التأويل في أبسط صورها و منذ القدم ، و مع التطور في الرؤية أصبحت لنظرية التلقي القواعد و المرتكزات التي تخصها.

2-مصطلح جمالية التلقي

على الرغم من كثرة الدراسات و التطبيقات في جمالية التلقي إلا أن المفهوم لم يكن موحدا عند النقاد و الدارسين لذلك ظل النزاع قائما حول ما تستهدفه النظرية ، و ربما كانت الإشكالية التي أدت إلى الاختلاف تتجسد فيما يعنيه المصطلح تحديدا دقيقا في الفرق بين "التلقي" و "التأثير" فكلاهما يتعلق بما يحدثه العمل في المتلقي من أثر ، و لذلك كان الفصل بينهما في غاية الصعوبة غير أن أكثر وجهات النظر تميل إلى أن التلقي متعلق بالقارئ 2

يوضح ياوس في كتاباته معنى المصطلحين المشكلين لتسمية النظرية الجديدة و بالتالي سبب اختياره لهما بالتحديد و قد ذهب إلى أن التلقي يعني الاستقبال و التملك و التبادل ، أما الجمالية فيقصد بها كيفية فهم الفن عن طريق تمرسنا به بالذات أي بالدراسة التاريخية للممارسة الجمالية تلك التي تتأسس عليها ضمن سيرورة (الإنتاج ، التلقي ، التواصل) كافة تجليات الفن "3إذا هي الانتقال من التركيز على العمل ومؤلفه إلى التركيز على مستقبله أو متلقيه، ومن أهم الأسس و المفاهيم الإجرائية التي طرحها ياوس :

3-أفق التوقع أو أفق الانتظار

صاغ ياوس هذا المفهوم الأفق من الأفق التاريخي عند"غادامير" و أضاف له كلمة الانتظار من مفهوم خيبة الانتظار عند كارل بوبرkarlpopper حيث رأى أن هذين المفهومين قد حققا رغبته في البرهنة على أهمية فعل التلقي " 4 ، وقد عرفه ياوس بقوله "هو النسق المرجعي الذي يمكن أن يصاغ موضوعيا و الذي يحيط بالعمل لحظة ظهوره إلى الوجود أي نسق المعايير و القيم المتزامنة مع ظهوره و التي تشكل التجربة الأدبية و التاريخية لدى قرائه في زمن التلقي" 5.

1أحمد بوحسن ، نظرية التلقي والنقد الأدبي العربي الحديث ، مجلة نظرية التلقي إشكالات وتطبيقات ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، سلسلة ندوات ومناظرات ، رقم 24 ، 1993 ، ص 11.

2 سامي إسماعيل ، جماليات التلقي ، دراسة في نظرية التلقي عند هانز روبرت ياوس و فولفغانغ ايزر ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ط1 ، 2002 ، ص 47.

3هانز روبرت ياوس ، جمالية التلقي ، من أجل تأويل جديد للنص الأدبي ، ترجمة رشيد بنحدو ، منشورات المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ط1 ، 2004 ، ص 101.

4 ناظم عودة خضر ، الأصول المعرفية لنظرية التلقي ، دار الشروق للتوزيع والنشر ، عمان ، الأردن ، 1997 ، ص 138.

5 المرجع نفسه ، 134.

4-المسافة الجمالية

هي إحدى المفاهيم التي طرحها ياوس في كتاباته على أنها تلك الفجوة الموجودة بين النص و أفق انتظار قديم و هي تكمل مفهوم الأفق وتوضحه ويمكن الحصول عليها من خلال ردود أفعال الجمهور إذ باستطاعته حسب ياوس أن يستجيب للعمل بطرق مختلفة، حيث يمكن الاكتفاء باستهلاكه،أو نقده و الإعجاب به أو رفضه،أو الالتذاذ بشكله أو تأويل مضمونه أو محاولة تفسير جديد له، كما يمكن أن ينتج بنفسه عملا جديدا 1 .

ومن هنا يسمح مفهوم المسافة الجمالية بأن نميز بين ثلاثة وضعيات للاستجابة:

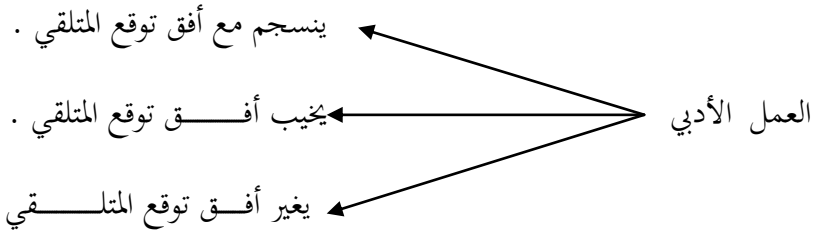

5- القارئ الضمني عند "أيزر"

أهم المفاهيم الإجرائية عند "فولفغانغ أيزر" متعلقة بالقارئ الضمني ويعتبر قمة ما توصل إليه ، وهو مختلف عن أنواع القراء الآخرين ، وجذوره ممتدة في صميم العمل الإبداعي وهو حسبه بنية نصية تتوقع حضور متلق دون أن تحدده بالضرورة 2 يكون قادرا على صياغة التفسيرات و التأويلات ، كما يعتقد أن النص يشتمل على فجوات تستدعي من القارئ أن يقوم بإجراءات لملئها .

ثانيا- مكانة المتلقي في الخطاب النبوي الشريف

للخطاب الديني سلطة فنية من حيث تساميه عن المألوف من الأجناس الأدبية المعروفة عند العرب ، وسلطة روحية بتصديه لمعتقداتهم ، و لهذا واجهت آياته/ أحاديثه روح المتلقي و عقله ، وخاطبته من نقطة قريبة من مداركه ، فوجهته إلى عقيدة التوحيد بتقديم الحجج و بسطها وتوظيف الحوار الهادف للوصول إلى أسباب الإقناع . فالخطاب النبوي الشريف إذا خطاب موجه في أساسه للتأثير على المتلقين و تغيير آرائهم وسلوكاتهم ، واستمالة عقولهم ولذلك شغل المتلقي مساحة واسعة فيه .

1- مراعاة مقتضى أحوال المتلقين

مما يلاحظ في خطاب النبي ﷺ مراعاته للعوامل المؤثرة في شخصيات المتلقين وأحوالهم وبيئاتهم ؛ بل و أعمارهم وأجناسهم ، إذ هو خطاب متكامل يستحضر ما يتعلق بالمتلقي كعامل مهم من عوامل نجاح العملية التواصلية ، وإذا كان الداعية إلى الله مأمورا ببلاغة القول وقد قال الله عز وجل لنبيه الكريمٍ {وقل لهم في أنفسهم قولا

1هانز روبرت ياوس ،جمالية التلقي ، من أجل تأويل جديد للنص الأدبي ، ترجمة رشيد بنحدو، ص 101.

2فولفغانغ أيزر ، فعل القراءة ، تر : حميد لحمداني و الجلالي الكدية ، منشورات مكتبة المناهل ، فاس ، المغرب ، 1987 ، ص 30

بليغا}النساء63 فإن البلاغة مدارها على رعاية المتكلم في كلامه الفصيح لمقتضى الحال ، وكلما كان المرء مراعيا في خطاباته لبلاغة الكلام ومقتضيات الأحوال كان أكثر تأثيرا و قبولا ، ومما كان يراعيه النبي في خطاباته الشريفة[1]:

أ- عقيدة المتلقي

من ذلك حديث البراء بن عازب :مُرَّ علَى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ بيَهُودِيٍّ مُحَمَّمًا مَجْلُودًا، فَدَعَاهُمْ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَ: أهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي في كِتَابِكُمْ؟ قالوا: نَعَمْ، فَدَعَا رَجُلًا مِن عُلَمَائِهِمْ، فَقالَ: أَنْشُدُكَ باللَّهِ الذي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ علَى مُوسَى، أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي في كِتَابِكُمْ قالَ: لَا، وَلَوْلَا أَنَّكَ نَشَدْتَنِي بهذا لَمْ أُخْبِرْكَ، نَجِدُهُ الرَّجْمَ " [2]

و يلحظ هنا الاختلاف بين خطاب العامة و العالم ، فقد سأل العالم كما سأل العامة لكنه قدم بين يدي سؤاله للعالم استنشادا بالله عزوجل تذكيرا له ووعظا على عكس العامة ، لأن العالم يردعه علمه عما يسوء إذا ذكّر ووُعظ خصوصا أن علماء اليهود يعلمون صدق النبيص ولهذا فالمتلقي/العالم في هذا المقام سيرتدع عن الكذب ،وقد حصل فأجاب بالصدق .

أما خطابه ﷺ للنصارى فنجد فيه رقة ولينا لا تكون مع اليهود وقد يكون ذلك لما قاله الله فيهم{لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود و الذين أشركوا ،ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون } المائدة82-83

ومن ذلك خطاب النبي للنصارى والذي تظهر فيه تلك الخصائص ، نذكر هنا كتابه إلى هرقل ، جاء فيه بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، من مُحَمَّدٍ عبدِ اللهِ ورسولِه إلى هِرَقلَ عَظيمِ الرُّومِ ، سلامٌ علَى من اتَّبعَ الهُدى ، أمَّا بعدُ ، فإنِّي أدعوكَ بدِعايةِ الإسلامِ ، أَسلِمْ تَسلَمْ ؛ يُؤْتِكَ اللهُ أجرَك مرَّتينِ " [3]

ب-بيئة المتلقي

تظهر رعاية النبي ص لهذا العامل المؤثر في المتلقي ومن ذلك الأحاديث التي ثبتت عنه والتي خاطب بها قريشا إذ عادته وحاربته فدعا شعراء المسلمين إلى هجائها ، وقد شُقَ عليهم أن يدعو عليهم، قال رسول الله ﷺ مخاطبا الشعراء " : اهْجُوا قُرَيْشًا ، فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ"[4] .

ت-منزلة المتلقي ومقامه

ومن ذلك مراعاته لمقام هرقل ، قال ﷺ في رسالته التي أرسلها إليه يدعوه للإسلام " من مُحَمَّد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ..."[5] إذ يختار النبي ﷺ في رسائله إلى الملوك الألفاظ التي تشعرهم بالاطمئنان على ملكهم إذا

---

[1] يوسف العليوي ، مراعاة مقتضى حال المخاطب، مجلة البيان https://ar.islamway.net/article.

2أخرجه مسلم في صحيحه « كتاب الحدود« باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى. حديث رقم 1700.

[3] أخرجه مسلم في المغازي) الجهاد والسير(، باب :كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، حديث رقم: 1773..

4أخرجه البخاري في صحيحه - باب من أحب أن لا يسب نسبه - حديث رقم 3369

[5] أخرجه مسلم في المغازي) الجهاد والسير(، باب :كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، حديث رقم: 1773.

هم أسلموا ، ترغيبا لهم في الإسلام ، قال النووي في رسالة هرقل " لم يقل إلى هرقل فقط ، بل أتى بنوع من الملاطفة فقال (عظيم الروم) أي الذي يعظمونه ويقدمونه ، وقد أمر الله تعالى بإلانة القول لمن يدعى إلى الإسلام فقال{ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة }[1] النحل125

ث– جنس المتلقي وعمره

كما وجه النبي خطابه إلى الرجال وجهه إلى النساء قصد تعليمهن أمور دينهن وتوعيتهن بل وتبيين مكانتهن في الإسلام ، وقد جَاءَتِ امْرَأَةٌ إلى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ فَقالَتْ: يا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ الرِّجَالُ بحَدِيثِكَ، فَاجْعَلْ لَنَا مِن نَفْسِكَ يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيهِ، تُعَلِّمُنَا ممَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ، قالَ: اجْتَمِعْنَ يَومَ كَذَا وَكَذَا فَاجْتَمَعْنَ، فأتَاهُنَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ فَعَلَّمَهُنَّ ممَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ، ثُمّ قالَ:

" ما مِنْكُنَّ مِن امْرَأَةٍ قَدِّمُ بيْنَ يَدَيْهَا، مِن وَلَدِهَا ثَلَاثَةً، إلَّا كَانُوا لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ " [2]

ومن عناية الخطاب النبوي الشريف بالمتلقي عنايته بالمرحلة العمرية له ، بما في ذلك الأطفال إذ كان يهدف إلى تنمية قدراتهم العقلية و مهاراتهم الفكرية ، كما كان يراعي التكوين الصحيح لشخصية الطفل ، ونستشهد بما جاء في حواره مع أحد الصبيان " فعن سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ أتي بشراب فشرب منه ، وعن يمينه غلام ، وعن يساره الأشياخ ، فَقَالَ لِلْغُلَامِ: أَتَأْذَنُ لي أنْ أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ الغُلَامُ: واللَّهِ يا رَسولَ اللَّهِ، لا أُوثِرُ بنَصِيبِي مِنْكَ أحَدًا، قَالَ: فَتَلَّهُ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في يَدِهِ." [3] وقد أراد إشعاره بأهمية رأيه وضرورة احترام رغبته وهو منهج نبوي يهدف إلى خلق الثقة في النفس واحترام المتلقي أيا كان سنه.

2– العناية بالسياق وأثر ذلك في إجلاء المقاصد النبوية لدى المتلقي

السياق عند ابن دريد (ت321هـ) "السوق : سقت البعير أسوقه سوقا "4 أما ابن فارس (ت395هـ) فالسياق : المهر5، وفي المعجم الوسيط هو " المهر، وسياق الكلام تتابعه و أسلوبه الذي يجري عليه"6.

والسياق نوعان لا ينفصلان سياق لغوي وسياق الحال ، يعتمد الأول على الكلام المنطوق في حين يعتمد الثاني على الظروف و الملابسات المحيطة بالحدث الكلامي وهذه الظروف تشمل بقية أنواع السياق حيث لا يمكن فصل الانفعالات الخاصة بالمتحدث أو المستمع أو فصل الظروف الاجتماعية أو المستوى الثقافي عن الموقف الكلامي "7 ومن أنواع السياق **سياق الموقف** أين تتوالى الأحداث التي تصاحب الأداء اللغوي وتكون ذات علاقة بالاتصال

---

[1] شرح صحيح مسلم ، 108/12

[2] فتح الباري شرح صحيح البخاري « كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة« باب تعليم النبي ﷺ أمته من الرجال والنساء مما علمه الله ليس برأي ولا تمثيل، حديث رقم:139

[3] أخرجه البخاري في صحيحه – باب في الشرب، ومن رأى صدقة الماء وهبته ووصيته جائزة، مقسوما كان أو غير مقسوم –حديث رقم 2252

[4] ابن دريد ، جمهرة اللغة ، تح : رمزي منير بعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، ط1 ، 1987 ، ج2 ، ص853

[5] أحمد بن فارس بن زكريا ، معجم مقاييس اللغة ، تح : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، ط1 ، 1979 ، ج3 ، ص117

[6] المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ، ط4 ، 2004

[7] فريد عوض حيدر ، علم الدلالة ،دراسة نظرية تطبيقية ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط1 ، 2005 ، ص163

1.ومن ذلك ما ورد عن النبي ﷺ " فعن العرباض بن سارية ﷺ قال: وعَظَنَا رسولُ اللهِ -ﷺ- مَوْعِظَةً وجِلَتْ منها القلوبُ، وذَرَفَتْ منها العيونُ ، قال : فقلْنَا : يا رسولَ اللهِ، كأَنَّ هذه مَوْعِظَةُ مُودِّعٍ فماذا تَعْهَدُ إلينا ؟ فقال : أُوصِيكُمْ بالسَّمْعِ والطَّاعَةِ، فإنه مَنْ يَعِشْ منكم بعدي فسَيَرَى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنَّتِي، وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِيْنَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بها، وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ ،وإيَّاكُم ومُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فإِنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ." 2 ، فقد استثمر النبي ﷺ الحالة النفسية للمتلقين التي ميزها السمو الروحي ليبث لهم هذه الباقة المتنوعة من القيم التربوية.

3- الاقتصاد في التأثير على نفسية المتلقي

القصد في الشيء بخلاف الإفراط وهو مابين الإسراف و التقتير[3] أما الاقتصاد في البلاغة "فمعناه أن يكون المعنى المندرج تحت العبارة على حسب ما يقتضيه المعبر عنه مساويا له من غير زيادة فيكون إفراطا ولا نقصان فيكون تفريطا" [4].

و يهدف الاقتصاد اللغوي إلى تخفيف العبء على المتكلم و المتلقي معا ، كما يعمل فيه المتكلم جاهدا على إنجاح ما يقوله من إيصال للأفكار إلى المتلقي أو إزالة لبس أو غموض ، والسعي وراء تبسيط الفكرة وتقديمها في قالب خفيف وهو ما يفسره قول الجاحظ " التقليل للتخفيف، والتطويل للتعريف ، والتكرار للتوكيد ، و الإكثار للتشديد" [5].

وقد تعرض مصطفى صادق الرافعي لهذا الموضوع في كتابه تاريخ آداب العرب حين اعتبر " الاقتصاد في التأثير على الحس النفسي للمتلقي أخص خصائص الإعجاز القرآني ؛ فقال إنه لا يسرف على النفس و لا يستفرغ مجهودها بل هو مقتصد في كل أنواع التأثير عليها فلا تضيق به ولا تنفر منه ولا يتخونها الملال " [6].

والاقتصاد سمة موجودة في الخطاب النبوي الشريف ، و واقع الاقتصاد فيه يوجه النظر إلى فكرة عدم الإفراط في استثارة إحساس المتلقي بما يؤدي إلى إجهاده ، ومن ثم فوات الغاية من التفهم و التأثر ولا نقصد هنا الاقتصاد الذي يؤدي إلى التفريط و الذي هو التقصير في إثارة القدر المطلوب من الإحساس ، فغير متصور في الحديث النبوي ؛ إذ التفريط عجز وهو أبعد ما يكون عن أفصح العرب سيدنا رسول الله ص [7]. ومن نماذج اقتصاد الخطاب النبوي في التأثير على الحس النفسي للمتلقي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ فِيَ الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ "[8] ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : وَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ (وَظِلٍّ مَمْدُودٍ) (الواقعة 30)

---

[1] تمام حسان ، قرينة السياق ، مطبعة عبير للكتاب ، القاهرة ، 1993، ص375

[2] أخرجه أبو داود (رقم4607)، والترمذي (رقم 2676)، وابن ماجه (رقم 42)

[3] ابن منظور ،لسان العرب ، مادة (قصد)دار صادر ، بيروت ، مج3 ، ص353-354

[4] يحي بن حمزة العلوي ، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، دار الكتب الخديوية ، القاهرة ط1 1914، ج2 ، ص301

[5] الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، تح : عبد السلام مُحَمَّد هارون ، ط1 ، م2 ، ج4 ، ص152

[6] مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط2 ،1974،ج2 ، ص 232

[7] بوزان الحمد ، مصعب حمود، الاقتصاد في التأثير على الحس النفسي للمتلقي في الحديث النبوي ، مجلة البحوث العلمية و الدراسات الإسلامية / مج1، ع2 ، ص 142

[8] أخرجه البخاري في صحيحه باب باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ~حديث رقم 3106

قال الفخر الرازي " الظل هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص و بين الظلمة الخالصة ؛ وهو مابين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس ..وهذه الحالة أطيب الأحوال"[1].

وقد يحمل المعنى في هذا الحديث على الحقيقة وأنه يمشي تحت أغصانها و سمي ظلا [2]، فهنا اقتصاد في التأثير الحسي في نفس المتلقي يتعلق بكلمة الظل التي تبعث في النفس الراحة و اليسر وبه تحقق المقصود من الكناية بسير مئة عام عن عظم الشجرة دون أن تشعر النفس بأدنى هناة من وعثاء السفر ووطأة السنين مما لا يتفق وروح الجنة و هناءها[3] .

فالخطاب النبوي يقوم على جمع الصورة و الخيال و العاطفة في عبارات قصيرة ، ويطرح الفكرة في لمحات سريعة قبل انقضاء نشاط المتلقي ، وهكذا يضمن التأثير فيه دون الإخلال بشرط الفهم و التدبر.

ثالثا– الخطاب النبوي الشريف بين توليد المعاني وكسر أفق التوقع لدى المتلقي

يهدف الخطاب النبوي الشريف إلى خلق المعاني الجديدة أو تغيير معاني راسخة داخل المجتمع ، ويرتبط الإقناع ببناء الرسالة و أسلوب تقديمها ، فتظل تلك الرسالة هي المتغير الأساس و الحاسم في تحقيق هدف الإقناع و الحصول على استجابات المتلقين .

أولا– الخطاب النبوي الشريف وكسر أفق التوقع لدى المتلقي

عملية استباق النتائج وتوقع ما سيؤول إليه النص في الأدبيات الحديثة هي إحدى ثمار تفاعل القارئ مع النص ، لكن بعض النصوص تضن أحيانا على القارئ بنتائجها و مستقبل أحداثها فتفاجئه بما لا يتوقعه لتحدث فيه نوعا من الاستغراب و ربما النشوة أيضا و يعرف هذا بكسر أفق التوقع ؛ وإذا كانت مخالفة المتوقع في النصوص الأدبية تصيب القارئ بالدهشة أحيانا و النشوة أحيانا أخرى ؛ تبعا لتفاوت النصوص و قائليها ؛ فإن ما جاء على خلاف الأصل في الخطاب القرآني أو على خلاف التوقع يثير الدهشة و الإعجاب دائما لما يحمله من فوائد ماكانت لتوجد لوكان التعبير ملائما لما هو متوقع " [4]ولا يختلف الأمر بالنسبة للخطاب النبوي الشريف فهما ينبعان من معين واحد وهو ما يطلق عليه مصطلح الدهشة الجمالية عند أصحاب نظرية التلقي وتعني " لحظة التقاء المتلقي بالنص و ما يثير فيه من تعجيب ودهشة تفتقدان إلى التأمل و التدبر؛ و بالتالي إلى تعليل الجودة ، وهي مرحلة تمهد لمرحلة ثانية تبرر فيها الدهشة عندما يجد المتلقي نفسه إزاء نص إبداعي ذي قيمة جمالية كفيلة بأن يتفاعل معها ، فيغوص في أعماقه و يظهر مقاصده " [5].

ومن أساليب كسر أفق التوقع لدى المتلقي في الخطاب النبوي الشريف

1– الالتفات

---

[1] الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 2000، ج24 ، ص77

[2] محمود بن أحمد البدر العيني ، عمدة القاري، إدارة الطباعة المنيرية ، القاهرة ، ج5 ، ص185

[3] بوزان الحمد ومصعب حمود ، الاقتصاد في التأثير على الحس النفسي للمتلقي ، ص 144

[4] أحمد سعد مُحَمَّد الخطيب ، من أساليب القرآن الكريم في كسر أفق التوقع ، مجلة الدراسات القرآنية ، ع10 ، 1433هـ ، ص 484

[5] تسعديت قوراري ، المتلقي في منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني ، الجاحظية ، الجزائر، 2007 ، ص147

وهو فن رفيع من فنون البلاغة سمي بذلك أخذا من التفات الإنسان يمينا وشمالا فتارة يقبل بوجهه وتارة يلتفت يمنة وتارة يلتفت يسرة وهكذا الالتفات في الكلام ، فإن المتكلم يلتفت فيه من خطاب إلى غيبة أو العكس ويلقب الالتفات بشجاعة العربية ، ووجه هذه التسمية أن الشجاعة هي الإقدام و الرجل الشجاع يركب مالا يستطيعه غيره ويتورد مالا يتورد سواه وكذلك الالتفات في الكلام .."[1] أما الالتفات في الخطاب النبوي فجاء في مقامات مختلفة وقف عندها الباحثون منها : [2]

أ- الالتفات عن (الإضمار) إلى (الإظهار)

ومن ذلك قوله ص " إنَّ اللهَ لا يقبضُ العلمَ انتزاعًا ينتزعُهُ منَ النَّاسِ ، ولَكن يقبضُ العلمَ بقبضِ العُلماءِ ، حتَّى إذا لم يترُك عالمًا ، اتَّخذَ النَّاسُ رؤوسًا جُهَّالًا ، فسُئلوا فأفتوا بغيرِ عِلمٍ فضلُّوا وأضلُّوا "[3]

أراد النبي ص أن يلتفت نظر المتلقي إلى قيمة العلم ومن ثم نيله و الحرص عليه وكان تقدير الملتفت عنه (يقبضه) ليتوافق مع نزعة العرب إلى الإيجاز ، فيقال (ولكن يقبضه)لكن أتى الملتفت إليه (العلم) ليفاجأ المتلقي بمخالفة المعهود فيعيد ذكره و يظهره دون إضمار ليصير ملتفتا إليه لينشئ هذا التضاد بين الإضمار و الإظهار و الملتفت عنه (يقبضه) وهو مقتضى الظاهر .

ب-الالتفات عن (التعريف) إلى (التنكير)

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام " ما مِن مَكْلُومٍ يُكْلَمُ في سَبيلِ اللَّهِ إلَّا جاءَ يَومَ القِيامَةِ وَكَلْمُهُ يَدْمَى، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ، والرِّيحُ رِيحُ مِسْكٍ" [4]

يصور الحديث صورة المجاهد المكلوم في سبيل الله بعد أن أثخن بالجراح فكان الملتفت عنه (اللون لون الدم) بقوله (اللون لون دم) ، و(الريح ريح المسك) بقوله (ريح مسك) ، ولو لجأ إلى التعريف لتطابقت الصورة مع ما تحمله مخيلة المتلقي وتأتي مألوفة قليلة الأثر، لكن الالتفات عن التعريف (الدم، المسك)إلى التنكير (دم، مسك) جعل الصورة بعيدة يتخللها التساؤل : أي دم؟ و أي مسك؟

ت-الالتفات عن (التنكير) إلى(التعريف)

ونجده في قوله ﷺ " لاحسَدَ إلَّا في اثنتَيْنِ : رجُلٍ آتاه اللهُ مالًا فسلَّطه على هلَكتِه في الحقِّ ورجُلٍ آتاه اللهُ حِكمةً فهو يقضي بها ويُعلِّمُها"[5]،كان الابتداء بسياق النكرة (مالا) لينشر في جو السياق الإطلاق المصاحب للتنكير فلا ينضبط في الذهن شيء معين معروف ، أي (أي مال) يعين في سلوك هذا الدرب ، ليكون الملتفت عنه (حكمة) أي حكمة واحدة معروفة وهي القرآن و السنة أي ما أتى به الشارع الحكيم فيرغب المتلقي فيها وهي من وجود الإقناع في الخطاب النبوي الشريف .

ث-الالتفات عن(الغيبة) إلى (الخطاب)

---

[1] المرجع السابق ، ص 484

[2] كفايت الله همداني ، الالتفات في الحديث النبوي الشريف ، مجلة القسم العربي ، جامعة بنجاب ، باكستان ، ع23، 2016 ، ص132-167

3أخرجه البخاري في صحيحه ،كتاب العلم-باب كيف يقبض العلم، رقم الحديث 100.

4أخرجه البخاري (رقم 5533)، ومسلم (رقم 1876) باختلاف يسير، وأبو عوانة في (المسند) (رقم 7304) مطولاً واللفظ له

[5] البخاري في صحيحه – باب الاغتباط في العلم والحكمة – حديث رقم 73 .

روى البراء ﷺ عن رسول الله ص قال: كان النبي ص ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه أو اغبرً بطنه ويقول : عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ يَنْقُلُ مَعَهُ التُّرَابَ وَهُوَ يَقُولُ :" وَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا ، يَوْمًا وَلَا صُمْنَا وَلَا صَلَّيْنَا ، فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ، وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا ،وَالْمُشْرِكُونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ، إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا"[1] وهنا تحدث المفاجأة عند المتلقي بتحول كبير في الخطاب فالملتفت إليه هنا (فأنزلن) حيث انتقل من عالم الغيبة إلى الخطاب استحضارا لعناية الذات الإلهية التي يرجى منها المن بالسكينة وتثبيت الأقدام يوم لقاء الأعداء فالطلب من المخاطب الحاضر أيسر للتلبية وأرعى لقلب المتلقي وليس حاله مثل الطلب من الغائب .

1- المثل

استعان النبي ﷺ في قيامه بمهمة التبليغ التي كلفه الله بها بشتى أساليب الإيضاح و التعليم ، وفي مقدمة تلك الأساليب " ضرب الأمثال " والأمثال في الخطاب النبوي "لم تأت لغاية فنية بحتة كغاية الأدباء في تزيين الكلام وتحسينه ، و إنما جاء لهدف أسمى ، وهو إبراز المعاني في صورة مجسمة لتوضيح الغامض و تقريب البعيد ، و إظهار المعقول في صورة المحسوس ، كما أن ضرب الأمثال أسلوب من أساليب التربية يحث النفوس على فعل الخير و يحضها على البر و يدفعها إلى الفضيلة و يمنعها عن المعصية و الإثم ، وهو في نفس الوقت يربي العقل على التفكير الصحيح و القياس المنطقي السليم لأجل ذلك ضرب النبي طائفة من الأمثال في قضايا مختلفة و في مواطن متعددة " [2].

وهي في أغلبها أمثال مبتكرة أراد بها النبي ﷺ كسر السائد عند المتلقي و بناء المعاني في ذهنه من جديد ، ومن ثم تمثلها في شكل سلوكيات و قيم بعد تغيير موقفه الفكري و إزاحة معتقده الذي كان يراه ثابتا.

ومن أمثاله قوله ﷺ " يا خيلَ اللهِ اركبِي "[3] وهو من الكلام الذي لم يسمع من أحد قبل النبي ﷺ وقد تداوله الناس حتى غدا مثلا من أمثاله صلوات الله عليه وأصبح يطلق للقوم النافرين للحرب وغيرها ، والمراد به "يافرسان خيل الله اركبي" وبالرغم من أن هذا المثل يطلق في وقت الحرب والناس أحوج ما تكون إلى الكلام المرسل الذي يشحذ الهمم ويوقظ العزائم ، إلا أن النبي الكريم لجأ إلى الإيجاز ؛ وهو إيجاز محمل بالطاقة و مكثف بالدلالة بغية التأثير في الحس النفسي للمتلقي .

ومن أمثاله قوله ﷺ" لا ينتطح فيها عنزان "[4] والحديث يدور حول عصماء بنت مروان من بني أمية بن زيد وكانت تحرض على المسلمين وتؤذيهم وقد قتلها عمير بن عدي بعد غزوة بدر فسأله النبي صلى الله عليه وسلم " أقتلت عصماء ؟ قال نعم ، قال : فقلت : يانبي الله : هل علي في قتلها شيء؟ فقال رسول الله ص " لا ينتطح فيها عنزان " فهي أول ماسمعت منه[5] وهي من جوامع الكلم الذي يمثل الإبداع اللغوي في أعلى درجاته إذ مثل لنا الأمر

---

[1] صحيح البخاري« كتاب المغازي« باب غزوة الخندق وهي الأحزاب ، حديث رقم 3878.

[2] مُحَمَّد أبو علا الحمزاوي ، الخصائص البلاغية للبيان النبوي ، مكتبة الرشد ، دط ، 2007 ، ص 112

3 أخرجه أبو داوود في سننه كتاب الجهاد« باب في النداء عند النفير يا خيل الله اركبي . رقم 2560.

4أبو هلال العسكري جمهرة الامثال دار الجيل بيروت ج2 ص 403

5 المرجع نفسه ، الصفحه نفسها.

الظاهر البين الذي لا يختلف فيه اثنان بما لا ينتطح فيه عنزان ، وهو تمثيل في غاية الدقة غاب عن العرب الذين لا يشق لهم غبار في جودة المعاني وروعة الألفاظ .

وقد استخدم النبي ﷺ أمثالا بلفظها كانت سائدة في الجاهلية لكنه غيَّر معانيها بما يتماشى و روح الإسلام ؛ من ذلك ما جاء عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ " انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ، هذا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكيفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قالَ: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ "[1] قال ابن حجر في فتح الباري : قال ابن البطال: النصر عند العرب الإعانة ، وتفسيره لنصر الظالم بمنعه من الظلم —من تسمية الشيء بما يؤول إليه– وهو من وجيز البلاغة "[2].ومعناه انصر أخاك مظلوما وكفه عن ظلمه إن كان ظالما [3]

ومن الأمثال السائرة التي سعى النبي ﷺ من خلالها إلى التأثير في الذائقة اللغوية و الفكرية عند المتلقي وذلك بتغيير بعض ألفاظها المثلُ الذي تقول فيه العرب " أثقل من جبل ثهلان"[4] بقوله في ابن مسعود " و الذي نفسي بيدِه لَهُمَا أَثْقَلُ في الميزانِ من جَبَلِ أُحُدٍ " [5]وفي هذا الحديث تحذير و نهي عن السخرية التي تفهم من السياق ، وهذه الأمثال ونحوها لها حضورها في ذهن المتلقي و مخيلته وقد عمل النبي ﷺ على استثمارها و التجديد فيها بما يسهم في بناء معان جديدة بل ذهنيات جديدة.

2– التصوير

الأصل في طرفي التشبيه (المشبه و المشبه به) أن يكونا معلومين ووجه الشبه بينهما جامع لوصف مشترك فيهما ؛ غير أنه في المشبه به أقوى ، لكن هذا التوقع قد ينكسر أو يتغير عندما يكون طرفا التشبيه أو أحدهما غير معروف المعالم ، وليس له من إدراك معالمه إلا صورة في الذهن تنطبع فيها أوصافه لا على وجه التحديد[6] .

ومن الصور التي اختص بها النبي صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ و التي فتحت آفاقا جديدة أمام المتلقي" ما رواه أبو هريرة قال: سمى النبي رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ "الحَرْبُ خَدْعَة "[7] وقد أطلقها في غزوة الخندق والحديث قطعة بليغة من كلامه ﷺ تسفر عن البيان النبوي العالي و الفن البديع المرتجل النادر ، و هو وصف دقيق لجواز إباحة الحيلة و الفطنة في الحروب.

ومن الصور البلاغية النبوية التي خرج فيها كلامه ﷺ عن المألوف ليخترق أفق توقع المتلقي ومن ثم يغيره ؛ لما فيه من حلاوة ؛ وما عليه من طلاوة ؛ "كانَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ في بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَغُلَامٌ أَسْوَدُ يُقَالُ له: أَنْجَشَةُ يَحْدُو، فَقالَ له رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: يا أَنْجَشَةُ، رُوَيْدَكَ سَوْقًا بالقَوَارِيرِ". [8]وهو من مبتكرات كلامه الذي لم يسمع من أحد قبله إذ يتحدث فيه عن البنية الجسدية للمرأة ، في صورة مستحدثة لم ينتبه إليها العرب

---

1 أخرجه البخاري في صحيحة ، رقم 2444.

2فتح الباري ، ج5 ، ص 987

3العسكري ، جمهرة الأمثال ، ج1 ، ص 58

4المرجع نفسه ، ج1 ، ص 292

5 أخرجه ابن حبان في باب ذكر تمثيل المصطفى ﷺ- رقم 7194 .

6 أحمد سعد محمَّد الخطيب ، من أساليب القرآن الكريم في كسر أفق التوقع ، ص 500

7 أخرجه البخاري« كتاب الجهاد والسير« باب الحرب خدعة رقم 2864.

8 أخرجه البخاري (6149)، ومسلم (2323)

بالرغم مما أسهبوا فيه من وصف المرأة ، أما أن تشبه بقارورة الزجاج لضعفها فهذا لم يخطر ببال الشعراء و البلغاء من قبل، وقد سعى من خلاله خطابه إلى بعث قيم الرحمة و الرفق بالمرأة في نفس المتلقي و كيفية التعامل مع النساء.

ثانيا– التغيير وبناء المعاني الجديدة لدى المتلقي

إن الخطاب النبوي يرمي إلى تحقيق هدف الإقناع في تغيير الوضع القائم أي " إحداث تغيير في الموقف الفكري "[1] لدى المتلقي و بالرغم من أن الخطاب النبوي خطاب له خصوصيته ، خطاب جاء بغية التأثير و التغيير و الإقناع ، لكنه لم يفتقد أبدا إلى الجمالية و الإمتاع ، ومن يتأمل كلام النبي ﷺ سواء ما كان من قبيل الجوامع أو غيرها يجده لا يخرج عن ثلاثة أحوال :

- الحالة الأولى : كلام مبتكر على غير مثال سابق في تقرير المعاني الشرعية وهذا هو الأكثر و الأشهر كقوله ص " الدين النصيحة " .
- الحالة الثانية : كلام مخترع لا تعرفه العرب ، ولم يوجد في متقدم كلامها ، بحيث يكون المعنى في أصله معلوما لكنه ص عبر عنه بكلام جامع أ ألمح فيه إلى صورة بلاغية جديدة لم تعهد في لسان العرب ومن أمثلته قوله ص " مات حتف أنفه" .
- الحالة الثالثة : أن يكون الكلام منقولا عمن سبقه سواء من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو عن غيرهم وهذا لم أقف على مثال له غير قوله ص " إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت " [2].

ومما كان للنبي السبق في إيراده و مفاجأة المتلقي به قول رسول الله ﷺ " هذا حِينَ حَمِيَ الوَطِيسُ "[3] وقد وقد أورد هذا الحديث في غزوة حنين لما اشتدت الحرب و بلغ القتال ذروته ، فابتكر النبي الكريم هذا النسيج اللفظي البديع الذي لم يألفه العرب في كلامهم وقد غاب عنهم بالرغم من مكانة الحرب في نفوسهم

ومن الخطابات التي لم تعرف لها العرب مثيلا قوله ﷺ " مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ " [4] وقد ارتجله النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي صورة تجسد الموت على الفراش دون قتال .

ومن بديع ما أثار دهشة المتلقي للخطاب النبوي الشريف قوله ﷺ " هُدنة على دَخَن "[5] وقد قال الزمخشري في شرحه للحديث " هدأ بمعنى سكن ، الدخن مصدر دخنت النار إذا ألقي عليها حطب رطب فكثر دخانها وفسدت ؛ و ضربه مثلا لما بينهم من الفساد الباطن تحت الصلاح الظاهر "[6]

ومن المعاني الجديدة التي وسعت مدارك المتلقي اللغوية و قدراته التخييلية ما رواه عبد الله بن عمر قال : قيل يا رسول الله من أفضلُ النَّاسِ قال : كلُّ مخمومِ القلبِ ، صدوقُ اللِّسانِ ، قالوا ، صدوقُ اللِّسانِ نعرِفُه فما مخمومُ القلبِ

1هنريش بليث ، البلاغة و الأسلوبية ، تر :محمّد العمري ، دراسات سال، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 1989 ، ص64 .

[2] عمر بن عبد الله المقبل، جوامع الكلم النبوي ، ط1 ، 2017 ، ص 78-79

[3] أخرجه مسلم في صحيحه ، حديث رقم 1775.

[4] أخرجه أحمد في المسند :36/4/حديث رقم 16414 .

[5]أخرجه البخاري في صحيحه – باب علامات النبوة في الإسلام ، حديث رقم3414 .

6 الزمخشري ، الفائق في غريب الحديث و الأثر ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، 1993 ، ج4، ص95

؟ قال التَّقيُّ النَّقيُّ ، لا إثمَ فيه ، و لا بغْيَ ، ، و لا غِلَّ ، و لا حسَدَ " [1]ومخموم القلب من الكلمات الجوامع التي اختص بها الخطاب النبوي والتي تجمع الأخلاق الحميدة في لفظ واحد ، وهاهو المتلقي /العربي الذي يشهد له التاريخ بالفصاحة و البلاغة يقف عاجزا أمام البلاغة النبوية والتي غدت مرجعا ينهل منه ألفاظه ومعانيه .

وقد وسع النبي ﷺ من المعاني الموجودة آنذاك بمعان أخرى جديدة تحمل نظرة جديدة للكون و الحياة و الإنسان و دوره فيها ، ومن ذلك عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَا تَعُدُّونَ الرَّقُوبَ فِيكُمْ ؟ " قَالَ قُلْنَا : الَّذِي لَا يُولَدُ لَهُ ، قَالَ : " لَيْسَ ذَاكَ بِالرَّقُوبِ وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ الَّذِي لَمْ يُقَدِّمْ مِنْ وَلَدِهِ شَيْئًا " قَالَ : " فَمَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ ؟ " قَالَ قُلْنَا : الَّذِي لَا يَصْرَعُهُ الرِّجَالُ ، قَالَ : " لَيْسَ بِذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ " [2] فجعل معنى لفظة الرقوب : من لم يمت أحد من أولاده في حياته فيحتسبه ويكتب له ثواب مصيبته ، و الصرعة حسبه الذي يملك نفسه عند الغضب ،و كانت العرب تطلقه على الذي لا يقدر الرجال على صرعه ..والمعنيان مختلفان اختلاف الرؤية الجاهلية و الرؤية الإسلامية هذه الأخيرة التي سعى النبي صلى الله عليه وسلم إلى إيصالها للمتلقي عن طريق الإبلاغ و التأثير و الإقناع بشتى الوسائل و على رأسها الحوار و الاستفهام و اللذان يسهمان في تغيير ذهنيات المتلقي و المعتقدات السائدة و الثابتة بأخرى تهدف إلى بناء الإنسان الحضاري الذي يصبو إلى الفلاح في الدنيا و الآخرة ..

ومن الأحاديث التي تأتي في السياق ذاته و التي أبدع فيها النبي ﷺ وتغيأ من خلالها تغيير الموقف الفكري و الأخلاقي للمتلقي ما رواه الإمام مسلم قائلا " عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ- قال : أَتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المُفْلِسُ فِينا مَن لا دِرْهَمَ له ولا مَتاعَ، فقالَ: إنَّ المُفْلِسَ مِن أُمَّتي يَأْتي يَومَ القِيامَةِ بصَلاةٍ، وصِيامٍ، وزَكاةٍ، ويَأْتي قدْ شَتَمَ هذا، وقَذَفَ هذا، وأَكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَبَ هذا، فيُعْطَى هذا مِن حَسَناتِهِ، وهذا مِن حَسَناتِهِ، فإنْ فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قَبْلَ أنْ يُقْضَى ما عليه أُخِذَ مِن خَطاياهُمْ فَطُرِحَتْ عليه، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ." [3] ، فالإفلاس عند المتلقي/ العربي كان مرتبطا بما هو مادي ، يقول الجرجاني في شرحه للحديث "ذاك أن النبي بين الحكم في الآخرة ، فلما كان الإنسان إنما يعد غنيا في الدنيا بماله لأنه يجتلب به المسرة ، ويدفع المضرة ، وكان هذا الحكم في الآخرة للعمل الصالح ، ثبت لا محالة أن يكون الخالي نعوذ بالله من ذلك هو المفلس، إذ قد عَري لأجله يسمى الخالي من المال في الدنيا مفلسا، وهو عَدِم ما يوصله إلى الخير و النعيم ويقيه الشر و العذاب"[4].

رابعا – أنواع المتلقين في الخطاب النبوي الشريف

للمتلقي تأثير كبير في بناء الأسلوب في الخطاب النبوي الشريف وهو ما عنيناه أثناء حديثنا عن اهتمام النبي ﷺ بالسياق الذي يورد فيه خطاباته، و كذا مراعاته لمقتضى أحوال المتلقين ، وقد تباينت أحوال المتلقين للخطاب النبوي ؛ لعل أهمها :

1- المتلقي الحقيقي/الفعلي

1أخرجه ابن ماجه – كتاب الزهد– باب الورع والتقوى ، حديث رقم 4216.

2أخرجه البخاري في صحيحه باب – ما قدم من ماله فهو له ، حديث رقم 6103

[3]أخرجه مسلم في صحيحيه ، الترمذي في سننه عن أبي هريرة

[4] عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة في علم البيان ، تح عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 2001 ، ص 67

أ- المتلقي المصدق

تعامل النبي ﷺ مع متلق تتوافر عنده خاصية التصديق والإقبال على التعلم ؛وقد استخدم في ذلك المقام وسائل لغوية و أسلوبية في خطابه الموجه للمتلقي ، يمكن إيجازها في :

1- صياغة الخطاب النبوي في أساليب بلاغية موجزة حتى يسهل تناقلها دون أن تغيب عنها الدلالات المكثفة ،حيث يتناسب الإيجاز مع الغاية التواصلية و التعليمية وسهولة تحويلها إلى أفعال منجزة .

2- استعمال الأساليب البديعية المتناغمة التي تسهل حفظ الأحاديث وتناولها.

3- تكرار الحديث كاملا أو جزءا منه ؛ بهدف التأكيد كون المتلقي مقبلا على النبي مصدقا لما يقوله.

4- التنويع في الوسائل الأسلوبية المختلفة كالقسم و التوكيد و الشرط..

5- استخدام لغة الجسد كالتبسم و الفرح والاستبشار و الصمت و حركة الرأس وتغير نبرات الصوت ...

6- الحوار كتقنية أساسية في الخطاب مع المتلقي .

7- التلطف في الأسلوب كالابتعاد عن النهي الصريح أو الأمر الصريح مراعاة لحال المتلقي .

8- تعليل الطلب حتى يدفع المتلقي للعمل وهو راغب مقتنع .

ب- المتلقي المخالف

لعل أسلوب الجدل أو الحجاج من أهم الأساليب التي سلكها النبي ﷺ في محاوراته مع المتلقي/ المخالف ، إذ كانت وسيلته الفعالة للإقناع و تغيير موقف المتلقي و آرائه ، بل و التأثير فيه ودعوة الفكر إلى التأمل و التدبر ولم يخرج النبي ﷺ عن النهج الذي رسمه القرآن الكريم في الرد على المخالفين ؛ قال تعالى {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن }العنكبوت46وقال في حديثه عن فرعون { فقولا له قولا لينا}طه 44.

ومن أمثلة محاورة رسول الله ﷺ مع المتلقي /المخالف محاورته لعبد الله ابن سلام ؛ فقد روى أنس أن عبد الله بن سلام بلغه قدوم النبي ص المدينة فأتاه يسأله عن أشياء " حَدَّثَنَا أَنَسٌ ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلاَمٍ ، بَلَغَهُ مَقْدَمُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَدِينَةَ فَأَتَاهُ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْيَاءَ ، فَقَالَ : إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلاَثٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ ، مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ؟ ، وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ ؟ ، وَمَا بَالُ الوَلَدِ يَنْزِعُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ ؟ ، قَالَ : " أَخْبَرَنِي بِهِ جِبْرِيلُ آنِفًا " قَالَ ابْنُ سَلاَمٍ : ذَاكَ عَدُوُّ اليَهُودِ مِنَ المَلاَئِكَةِ ، قَالَ : " أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُهُمْ مِنَ المَشْرِقِ إِلَى المَغْرِبِ ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ الحُوتِ ، وَأَمَّا الوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ المَرْأَةِ نَزَعَ الوَلَدَ ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ المَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتِ الوَلَدَ " قَالَ : أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ " [1] ، فقد رد عليه بالحجة و الدليل ما جعله يقتنع بل ويغير معتقده .

2- المتلقي الضمني/الغائب

[1] أخرجه البخاري في صحيحه باب- من كان عدوا لجبريل- حديث رقم 4233 .

يهتم أيزر " بصفة خاصة بكيفية إنتاج المعنى عند القارئ، وكيفية القيام بصياغة التفسيرات والتأويلات ،وكيفية الاستجابة لتكوين ردة فعل تجاه ما يقرأ ويعتقد أن النص يشتمل على فجوات تستدعي من القارئ أن يقوم بإجراءات لملئها ، ومن هذا المنطلق يضع حتمية القارئ الضمني الذي يعتمد عليه بصفة أساسية في نظريته" [1]

ما يعني أن المتلقي الضمني يرتبط بالفهم و المشاركة في بناء المعنى والكشف عن الغامض و المستتر من خلال ظاهر المعنى المكشوف ولعلنا نجد حضوره واضحا في هذا الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ " نضَّرَ اللهُ امرَأً سمِعَ مِنَّا حديثًا، فحفِظَه حتَّى يُبَلِّغَه غيرَه، فرُبَّ حامِلِ فِقْهٍ إلى مَن هو أفقهُ منه، ورُبَّ حامِلِ فِقْهٍ ليس بفقيهٍ. " [2]

في هذا الحديث ما يدل على فضل نشر العلم وتبليغه فتتصل السلسلة ويتوارث الناس الهدى ، لكن الذي نستشفه من الحديث أنه يستشرف وجود متلق آخر متمكن من الاستنباط و التأويل و الفهم و التدبر وقد يستخرج من أحاديثه ﷺ ما لم يستخرجه غيره ، بل إنه هنا يميز بين نوعين من المتلقين (متلق/ راو) و (متلق /فقيه) يظهر ذلك في قوله " فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه " ما يثبت أن المتلقي الفقيه أعلى منزلة من المتلقي الراوي ،و هو هنا متلق ضمني /غائب نجده " أقرب ما يكون إلى الوهم المتخيل ، لا وجود له إلا في ذهن المبدع ، وكل ما يمكن أن يقال أنه مرحلة وسطية بين المبدع وبين المتلقي الحقيقي الخارجي " [3]

ذلك أن الخطاب النبوي الشريف نص مؤهل للقراءة مشبع بالطاقات التأويلية لما يمتلكه من عناصر الإبداع المختلفة يبوح للمتلقي المتخصص بما وراء نسيجه الظاهر من دلالات لا تنتهي.

خامسا– تلقي العلماء لبلاغة الخطاب النبوي

نتحدث هنا تحديدا عن عناية العلماء بالجانب البلاغي للخطاب النبوي الشريف حيث أثار اهتمام الدارسين من القديم إلى الحديث " فنسق البلاغة النبوية يمتاز في جملة بأنه ليس من شيء نجده في كلام الفصحاء والبلغاء ،إذ هو مبني على الخلوص والقصد و الاستيفاء ولاجتماع تلك الثلاثة في كلام النبي وبناء بعضها على بعض سلم هذا الكلام المتقن العظيم من التعقيد و التكلف والعي و الخطل وسلمت وجوهه من الاستعانة بما لا حقيقة له من أصول اللغة " [4]، و "لعل الجاحظ أن يكون من أوائل من عنوا بالبلاغة النبوية و قد استشهد بجملة من الأحاديث مبينا فضل الفصاحة فيها ؛ بل وازن تشبيهات النبي ﷺ وبلاغته ببعض كبار البلغاء ليتبين البون الشاسع بينهما ، وقدم لذلك في موضع بعبارة جميلة في وصفه بلاغة النبي " [5]و منه قوله " وهو الكلام الذي قل عدد حروفه؛وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ؛ونزه عن التكلف ؛ واستعمل المبسوط في موضع البسط ؛ والمقصور في موضع القصر ؛ لم يسمع الناس بكلام قط ؛أعم نفعا ؛ولا أقصد لفظا؛ ولا أعدل وزنا؛ ولا أجمل مذهبا؛ ولا أفصح معنى من

---

[1] فاطمة البريكي ، قضية التلقي في النقد العربي القديم ، دار الشروق ، عمان ، ط1 ، 2006 ، ص 54-55

[2] أخرجه ابن ماجه في سننه باب– في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ، حديث رقم 233.

[3] خالد علي مصطفى ، ربى عبد الرضا عبد الرزاق ، مفهومات نظرية القراءة و التلقي ، مجلة ديالي ، ع69 ، 2016 ، ص 175

[4] مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن و البلاغة النبوية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط2 ، 1421هـ ، ص 232-233

[5] أحمد الكندي ، علم المعاني في الحديث النبوي الشريف ، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية ، مج 15 ، ع3 ، 2019 ، ص .12

كلامه"[1]كما وقف الدارسون عند جهود الشريف الرضي (ت401هـ) في كتابه "المجازات النبوية" فقد عمد فيه إلى الكشف عن معاني الحديث وجانبه البلاغي ، ووقف عند الأحاديث واستنطقها وأخرج مافيها من درر، وكان للزمخشري (ت538هـ)في كتابه "الفائق في غريب الحديث "تحليلاته البيانية للأحاديث التي أوردها ، فرفد المادة البلاغية بالشواهد والتعليقات عليها، كما كان لابن الأثير (ت637هـ) في كتابه "المثل السائر" دور كبير فهو ممن تجلت عنايته بالحديث النبوي في الجانب البلاغي ،وقد خصص فصلا في كتابه عنونه بجوامع كلمه ﷺ .

كما اشتغل العلماء على أمثاله السائرة والتي تزخر بالأساليب البلاغية فتوشحت بها كتب الأمثال "كجمهرة الأمثال" للعسكري ، و "مجمع الأمثال" للميداني و"كتاب الأمثال و الحكم عند العرب" للماوردي ، وكذلك ابن عبد ربه في "عقده الفريد" والذي خصص لأمثال النبي ﷺ جزءا منه.

أما من المحدثين فيعتبر كتاب "إعجاز القرآن و البلاغة النبوية" لمصطفى صادق الرافعي من أهم المراجع التي وقفت عند بلاغة الحديث النبوي ، إضافة إلى كتاب "في الحديث النبوي و البلاغة النبوية" للبوطي و "الحديث النبوي من الوجهة البلاغية" لعز الدين الأسد و "البيان النبوي" لمحمد رجب البيومي و "الخصائص البلاغية للبيان النبوي" لأبي العلا الحمزاوي ، وغيرها من المراجع التي تلقت الجانب البلاغي من الخطاب النبوي بالعناية و الاشتغال والشرح

وهنا نتحدث عن علماء الجزائر واهتمامهم بعلم الحديث ، يقول في ذلك أبو القاسم سعد الله " من العلوم التي أنتج فيها الجزائريون علم الحديث و مصطلحه ، فقد اعتنوا به تدريسا وتأليفا ورواية وإجازة ، ولا شك أن ذلك يعود إلى صلة علم الحديث بالدين و التصوف معا ، كما يعود إلى كون علم الحديث يعتمد إلى حد كبير على الحفظ ، وهم حفاظ مهرة ، حتى اشتهروا بذلك منذ القديم ، وكان العمل عندهم بالكتب الستة، يدرسونها ويحفظونها ولكن عنايتهم بصحيح البخاري قد فاقت كل عناية " [2]

وربما كان "من المثير هنا أن نذكر أن من أوائل شراح صحيح البخاري عالم جزائر اسمه أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي التلمساني (ت402هـ) بل إن الشيخ عبد الرحمن الجيلالي يصرح بأن الإمام الداودي التلمساني هو أول من شرح البخاري في كتابه المسمى " النصيحة في شرح صحيح البخاري " رغم أن جمهور العلماء يقولون إن الإمام الخطابي (ت 388هـ) هو أول من تصدى لصحيح البخاري بالشرح في كتابه أعلام الحديث ، أما عبد العزيز دخان فذكر في دراسته عن الإمام السنوسي وجهوده في علم الحديث أن الإمام الخطابي رغم أسبقيته في شرح البخاري إلا أن شرحه لم يستوف كل الصحيح ببلوغه ثلاث مجلدات فقط ، أما شرح الإمام الداودي فشمل الصحيح كله " [3].

سادسا – تلقي الأدباء و الشعراء لبلاغة الخطاب النبوي

اعتمد الأدباء في كتاباتهم على اختلاف أجناسها الخطاب الديني كمرجعية يتكئون عليها ويستثمرون طاقاتها الدلالية للتعبير عن مكنونات أنفسهم ، ومخزونها اللغوي و المعرفي على سبيل الاستدلال وتقوية الحجة باعتبار أن ماجاء به الخطاب الديني القرآني/النبوي طرح يقيني لايدع مجالا للشك .

---

[1] الجاحظ ، البيان و التبيين ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط7 ، 1988 ، ص 16-17-18

[2] أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1981 ، ج2 ، ص 29

[3] حبيب بوزوادة ، دور علماء الجزائر في خدمة الحديث النبوي ، مجلة العلوم الإسلامية و الحضارية ، ع08 ، جوان 2018 ، ص 483

فالخطباء استقبلوا الحديث النبوي وبلاغته وراحوا يستثمرون به "وإذا علمنا أن أكثر الخطب تدور حول مبادئ الدين علمنا مقدار العناية برواية أحاديث الرسول والاستشهاد بها ، فإن الحديث إذا صح عندهم كان فيه فصل الخطاب واعتقدوا أن الخطيب بروايته يصيب محض الصواب " [1]

أما **القصص** فيرى مُحَمَّد بن حسن الزير أن أنواع القصة النبوية ثلاث ؛ القصة الواقعة للرسول ص كقصة شق الصدر ، و القصة التمثيلية كقصة العبد الذي فقد راحلته ، والقصة الغيبية كقصة الأبرص و الأقرع و الأعمى "[2]وقد أثرت بأنواعها الثلاث على الفن القصصي ، ولعل تأثير القصص النبوي على المتلقي/الأديب يكمن في نقاط أهمها التنويع في موضوعاتها و ربطها بهدف معين خاصة إذا علمنا أن العرب في جاهليتها" قد نسجت قصصها حول الأوابد ، و الأوابد أمور كانت العرب عليها في الجاهلية بعضها يجري مجرى الديانات وبعضها يجري مجرى العادات ، وبعضها يجري مجرى الخرافات كالكهانة و الزجر و الطيرة والميسر و الأزلام ووأد البنات والغول.."[3]

و قصة الإسراء و المعراج أفضل مثال على اشتغال الأدباء على القصص النبوي كرسالة الغفران لأبي العلاء المعري والذي جعل العالم الآخر محور عمله الأدبي ، وتأثر به من جاء بعده من أدباء العرب كالوهراني الجزائري في مناماته وتحديدا" المنام الأكبر" ؛ وغير العرب كالكوميديا الإلهية لدانته وغيرها ..

أما **الرسائل** فقد سار الخلفاء الراشدون على منواله ﷺ في كتابة الرسائل ، ولم يحيدوا عن سننه مثلما فعلوا في خطبهم الكثيرة التي اقتفوا فيها أثر المصطفى واحترموا العرف الفني الذي قامت عليه رسائل النبي ﷺ في استفتاحه وختامه مع تفاوت المضامين التي لم تخل من التناص مع الخطاب النبوي وأساليبه المتنوعة " لتتخذ الرسالة اتجاها جديدا في أواخر العصر الأموي على يد عبد الحميد الكاتب والذي كان زعيم البلغاء في عصره ، أما في العصر العباسي فقد نمت مذاهب الصنعة وتحولت الرسائل إلى قطع زخرفية جميلة " [4]

أما **الشعر** فتعد الأحاديث النبوية منبعا من منابع الشعرية عند الشعراء قديما وحديثا ، فهي أصدق قول بعد كتاب الله ولا غرو أن يعتمدها الشاعر كقاموس لغوي راق ومتكامل ،وقد استقى الشعراء صورهم ومعانيهم من الخطاب النبوي ففي طلب العلم والتحضيض عليه قال ﷺ " يُوزَن يومَ القيامة مدادُ العُلماء بدماء الشهداء "[5] ونجد هذا في قول أفلح بن عبد الوهاب الجزائري (ت204هـ) متحدثا عن مقام العلماء ، قال: [6]

قال إن مداد الطالبين على ثيابهم وعلى القرطاس أسطارا

مثل دماء الشهداء المكرمين لهم فضل فأكرم بأهل العلم أخبارا

كما اقتبس أفلح قول رسول الله ﷺ " العلماء ورثة الأنبياء"[7] وضمنه في قصيدته قائلا [8]:

---

[1] مُحَمَّد أبو زهرة ، الخطابة أصولها وتاريخها ، دار الفكر العربي ، 1934 ، ص 263

[2] عمر بن حسن الزير ، القصص في الحديث النبوي ، المكتبة الشاملة ، القاهرة ، 1398هـ ، ص 267 وما بعدها.

[3] القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، دار الكتب العلمية ، ج1 ، ص454

[4] شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، مكتبة الدراسات الأدبية ، دار المعارف ، مصر ، ط10 ، ص 113-134

[5] أخرجه ابن عبد البر ، جامع بيان العلم وفضله ، 36/1

[6] مُحَمَّد بن رمضان شاوش، والغوثي بن حمدان ، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر ، دار البصائر للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 2011 ، ص 48

[7] أخرجه الترمذي في سننه ،كتاب العلم ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ، حديث رقم 2682

[8] المرجع السابق ، ص 48

وقال هم يرثون الأنبياء كذا فيهم روينا أحاديثا و أخبارا

وهذا ابن الخلوف القسنطيني يتحدث عن أهم مشعر من مشاعر الحج وهو يوم عرفة مضمنا قول رسول الله ﷺ " ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة " [1]حيث قال[2]:

حبذا عرفات الخير حيث همت بوابل العفو للعاصي سحابات

أما الأمثال النبوية فقد كان حضورها قويا في الشعر العربي وقد وشح بها الشعراء قصائدهم ومن ذلك قوله ﷺ " اشتدي أزمة تنفرجي " [3]والتي استهل بها يوسف بن النحوي البسكري قصيدته المنفرجة قائلا [4]:

اشتدي أزمة تنفرجي قد أذن ليلك بالبلج

ومثل هذه الأحاديث والأمثال النبوية تمثل التطور الذي شهده العقل العربي بعد ظهور الإسلام كما تمثل التحول الفكري الذي شهده المجتمع العربي ، لذا لا غرو أن نجد الشاعر يشتغل عليها و يستثمر في طاقاتها الدلالية و البلاغية الراقية .

خاتمة

اعتمد النبي ﷺ استراتيجية في التغيير و إنشاء المعاني الجديدة وخلق الاستجابة لدى المتلقي ومن ثم إقناعه وقد تباينت وتعددت طرائقها بين التشبيه و المجاز أو الاعتماد على الأساليب البلاغية كالالتفات و الاقتصاد اللغوي...كما لجأ إلى الحجاج المبني على الحوار و الاستفهام و النفي ...كل هذا في ثوب بلاغي ارتبط برؤية جديدة للكون و الإنسان و الحياة ، عمل في ظلها على توسيع مدارك المتلقين و تفتيق أذهانهم وإعادة تشكيل منظومتهم القيمية ، و قد تنوع المتلقون بين متعلم و عالم و أديب ،كل ينهل من هذا النبع ويروي حاجته فهو مصدر لا ينضب وجب الاشتغال عليه واستنطاق نصوصه لما فيها من كنوز ودرر .

توصيات

–يعتبر الخطاب النبوي نصا له خصوصيته وتفرده وسموه عن باقي الأجناس الأدبية ، لذا وجب الاشتغال عليه كونه مؤهلا للقراءة مشبعا بالطاقات التأويلية لما يمتلكه من عناصر الإبداع المختلفة يبوح للمتلقي المتخصص بما وراء نسيجه الظاهر من دلالات لا تنتهي .

–لا تكفي الدراسات البلاغية و الدلالية لاستخراج درر الخطاب النبوي بل علينا أن نقارب هذا الخطاب بمختلف المقاربات الحديثة ، وخاصة المتعلقة بالقراءة و التلقي لما لها من مؤهلات لاستجلاء خصائص الخطاب النبوي.

---

[1] أخرجه مسلم ،كتاب الحج ، باب فضل الحج و العمرة ، حديث رقم : 1348

[2] ابن الخلوف القسنطيني ، الديوان ، تح العربي دحو ، اتحاد الكتاب الجزائريين ، الجزائر ، 2004 ، ص 322

[3] العسكري ، جمهرة الأمثال ، ج2 ، ص81

[4] أحمد الغبريني ، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تح عادل نويهض ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط2 ،1979 ص194